تزاحم السكان

في دائرة العمران

اذا كانت سنّة التناسل تقضي بازدياد المواليد واذا كان تقدُّم الانسان في المعرفة يوسع دائرة العمران وجب بحكم الطبع ان يزداد سكان المعمور عاماً بعد عام وجيلاً بعد جيل . ولكن هل تطّرد هذه الزيادة ؟ واذا اطّردت فالى اي حد يبلغ عدد السكان ؟ وما الذي يضع ذلك الحد ؟ مسألة تلوح في خاطر كل انسان حتى الساذج ولم يغفلها علماء الاجتماع البشري ولاسيما علماء الاقتصاد السياسي كادم سميث وستورت مل ومارشال ووكر وغيرهم . وقد بحث فيها مالثوس بحثاً مستفيضاً واستخرج قاعدة للنسبة بين السكان والارزاق كانت موضوع خلاف عند كتّاب الاقتصاد بعده . واكثرهم تنفيها طا هنري جورج الاقتصادي الاميركاني المشهور

﴿ قاعدة مالثوس ﴾ — وقبل التبسط في هذا الموضوع نأتي على مجمل قاعدة مالثوس التي اخذت شهرة واهمية عند علماء الاقتصاد السياسي وهي : — يتضاعف عدد السكان مرة كل خمس وعشرين سنة (اي انهُ يزداد على نسبة هندسية في حين ان الارزاق التي يمكن الحصول عليها اذا كانت الاحوال خادمة لسعي الجنس البشري في تحصيل الرزق تزداد على نسبة حسابية . اي انهُ يضاف اليها كل خمس وعشرين سنة مقدار واحد من الرزق يعادل الرزق الذي حصل في الخمس والعشرين سنة الاولى

وقد استخرج هذه القاعدة مما لاحظهُ من نمو المستعمرات في اميركا الشمالية ومثّل عليها في الفصل الاول من كتابهِ عن « تعدُّد السكان » (Essay on population) بقولهِ : « هب ان سكان هذه الجزيرة ١١ مليون نسمة وان الرزق الذي يحصلونهُ يقوم بمعيشتهم تماماً . فبعد ٢٥ سنة يبلغ عددهم ٢٢ مليوناً وكذلك يتضاعف الرزق الذي يحصلونهُ وبعد ٢٥ سنة اخرى يبلغ عددهم ٤٤ مليون نسمة ولكن الرزق الذي يحصلونهُ لا يكفي اكثر من ٣٣ مليون نسمة (ليعيشوا كما كان آباؤهم يعيشون قبلهم) . وبعد ٢٥ سنة ثالثة يبلغ عددهم ٨٨ مليوناً والرزق لا يزيد على ما يكفي ٤٤ مليوناً . وفي نهاية القرن يبلغ عدد السكان ١٧٦ مليوناً والرزق لا يزيد على ما يكفي ٥٥ مليوناً . واما المئة والواحد والعشرون مليوناً فيبقون بلا رزق . فاذا نظرنا الى المعمور كلهِ بقطع النظر عن المهاجرة من بلاد الى

اخرى وحسبنا سكان المعمور الف مليون نسمة فالجنس البشري يتضاعف على هذه النسبة ١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ ٢٥٦ واما الرزق فيتزايد هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ . ففي نحو قرنين تصبح نسبة السكان الى الرزق كنسبة ٢٥٦ الى ٩ وبعد ٣ قرون تكون النسبة بينهما كنسبة ٤٠٩٦ الى ١٣ وبعد الني سنة لا تعود النسبة تحصى »

ولا يخفى ان هذا الحساب خيالي لا حقيقي لانهُ يستحيل ان يزيد عدد السكان على الحاصل من الرزق اذا كان هذا الحاصل منهُ لا يقوم بهم كلهم . ولهذا يستنتج مالتوس ان تضاعف السكان غير المتناهي لا بد ان يقف عند احد امرين : اما بامتناع الناس عن ولادة الاولاد او بالاسباب التي تزيد عدد الوفيات . ويرد هذه الاسباب الى سببين : التعاسة والفساد الناجمين من قلة الرزق

﴿ رأي ستيورت مل ﴾ — اما ستيورت مل فيذهب الى ان السكان يزدادون والرزق يقل عليهم معا زاد . ولكنهُ لا يقول بالنسبة الهندسية في تضاعف السكان ولا بالنسبة الحسابية في تزايد الارزاق

﴿ مخالفة هنري جورج ﴾ — اما هنري جورج فيخالف هذه النظرية على خط مستقيم ويذهب الى ان الارزاق تتزايد تزايد السكان . واما ما يطرأ على جانب من السكان من التعاسة والفساد فليس سببهُ قلة الرزق بل تحوُّل الجانب الاكبر من الرزق الى طبقة واحدة من الناس وحرمان طبقة اخرى من معظم حقها منهُ . فلو توزَّعت الارزاق على الناس بحسب استحقاقهم جزاء عملهم جميعاً لتضاعف السكان والارزاق معاً بقدر ما تحتمل الطبيعة من التزايد من غير ان يشكو احدٌ تعاسة او تشكو الهيئة الاجتماعية فساداً

﴿ ما يحتمل ان يكون ﴾ — لا مشاحَّة في احتمال تزايد السكان تزايداً مضاعفاً او اكثر من مضاعف لان الزوجين يلدان ٤ اولاد او اكثر عادةً اذا توفرت لها اسباب المعيشة الصحية . ولا تقل المواليد الاَّ متى ساءت المعيشة بسبب الفقر والفساد الادبي . ولهذا يحتمل تضاعف السكان في كل دور من ادوار الابوَّة ما دامت وسائل المعيشة موفورة

﴿ حد تزايد الارزاق ﴾ — اما الرزق فمهما تزايد فلا بد ان يبلغ الى حدٍّ يقف عندهُ متى فرغت الطبيعة من الامداد بهِ ولم يعد عمل الانسان يستطيع ان يستزيد الطبيعة رزقاً . وليبان ذلك نأخذ فدانًا من الارض ونفرض ان رجلاً وزوجتهُ يعملان فيهِ عملاً كافياً لتحصيل قوتهما وكسائهما منهُ . فاذا رُزِقا ولداً او ولدين اضطُرَّا ان يعملا فيهِ اكثر من قبل ليحصلا على المزيد من الرزق للمزيد من العائلة . فاذا كانت الغلة لا تكفيهم جميعاً اضطرا

ان يستزيدا غلة الغدان بوسائل اخرى كأن يسمّد الارض ويرويها بالوسائل الصناعية ما لم يكن يُروَى منها بالوسيلة الطبيعية . فقد تزداد الغلة حتى تقوم بالاربعة . وهب ان الولدين تزوّجا ورُزق كلٌّ منهما ولدين او اكثر فهل في وسع هذه العائلة التي تضاعفت مرة او مرتين ان تستزيد غلة الغدان ايضاً بوسائل اخرى . فاذا فرضنا انها وجدت وسائل اخرى كأن تنوع الزرع او تنهك الارض او تكثر الضرع فالبنون الذين يأتون بعدها يعجزون عن استزادة غلتها طبعاً لان لمصدرها الطبيعي حدّاً

وهنا لا بد من احد امرين اما ان يهاجر بعض البنين الى غدان آخر اذا كان في وسعهم ان يتملكوه ويشتغلوا فيه ليعيشوا منه ويبقى الباقون في الغدان الاول او ان يقنعوا بما قُسم لهم جميعاً من رزق ذلك الغدان فيصيب الواحد منهم اقل مما كان يصيب اباه وجده ويعيشون عيشة ضنك فيقل نسلهم ثم يقل عددهم

ولا يجوز هنا ان نغفل عن امر جوهري وهو ان استزادة غلة الغدان بالطرق الصناعية تكلّف مشقة اكثر من مشقة استغلال الغلة التي تمنّ بها الارض بالطرق الطبيعية . ففي الطريقة الطبيعية كان استخراج الغلة مقصوراً على الحرث والبذر والحصاد . واما الطريقة الصناعية فتستلزم مع ذلك رفع المياه ونقل السماد

فترى مما تقدّم ان ازدياد المترزقين من الغدان الواحد يكلّف مشقة اكثر وينيل الفرد الواحد رزقاً اقل وكلا الامرين يورثان التعاسة . فلا بدع ان تورث التعاسة الفساد والشرور اذ تثير الطمع في قلب البعض ليسطو على البعض الآخر

﴿ قياس الكبير على الصغير ﴾ — وعلى استعمار الغدان يقاس استعمار البلدان . فاذا اخذنا مصر مثلاً على هذا القياس نجد ان سكانها يوم كانوا نصف عددهم الحالي كانوا في بحبوحة من العيش وان كانت دائرة الزراعة حينئذٍ اضيق منها الآن لضيق دائرة الري وكانت غلة الارض اقل منها الآن وكانت الاعمال غير الزراعية قليلة . ولو استمرّ عددهم في الازدياد من غير ان تُحسَّن وسائل الري وتتسع دائرة الزراعة لقلت تلك البحبوحة حتماً وربما شعروا بضيق شديد او خفيف . ولكن مساعي الحكومة في تحسين الري وتوسيع دائرة الزراعة حتى صارت الارض التي كانت مهملة تزرع الآن والغدان يغلّ ضعفي غلته السابقة — كل ذلك نجّى المزيد من السكان من الضيق . ولعلّ الاحصاء الدقيق يفيدنا ان اهل مصر اصبحوا اليوم في بحبوحة اوفر من بحبوحة اسلافهم وان متوسط ثروة السكان صارت اكثر من متوسط ثروة اسلافهم . فازدياد السكان لم يكن ليقلل الرزق على اهله بل ليزيده

لم ما دامت الارض جوّادة بد

واذا كانت طبيعة الارض قد جادت بكل ما عندها جزاء عمل السكان فيها ولم يعد في وسعها ان تجود بالمزيد فلا ينفد الرزق عند حد الطبيعة ما دامت للانسان قوة للعمل في غير الطبيعة . فالذي لا يتسنّى لهُ ان يحصل رزقهُ من الزراعة فامامهُ الصناعة . ولهذا ترى الآن ان اوفق من الفلاحين صاروا يشتغلون مع الرجال بعد ان كان معظم الرجال فضلاً عن النساء يقتلون اوقاتهم في المجتمعات لقص الاقاصيص التي لا طائل تحتها . فترى مما تقدم انهُ كلما زاد عدد السكان اتسعت دائرة الاعمال المتنوعة لتحصيل الرزق

﴿ تجاوز الحد معناهُ المهاجرة ﴾ — فهل يمكن ان تستمر دائرة الاعمال في الاتساع ما دام السكان يزيدون ؟ اي اذا تضاعف عدد سكان مصر الحالي مرة اخرى فهل يبقى لكل حيّ فيها مترزق كما هو فيها الآن ؟ بالطبع لا . لان المترزقات الصناعية متوقفة على المترزقات الطبيعية (كما سيرد بيانهُ) وهذه محدودة . فلا بد اذاً من ان يحدث كما حدث في استعمار الفدان . فالذين لا يطيقون شظف العيش والذين يجدون في انفسهم طمعاً بمعيشة افضل يهاجرون الى اقرب وايسر مهجر لهم — قل السودان مثلاً

وهب ان السودان بعد زمن من الازمان ازدحم بالسكان ازدحام مصر بهم فلا بدّ ان يُضطرّ جانب من سكانهِ ان يهاجروا الى مجاهل افريقيا

على هذا النحو كان مستعمرو الكاب كلما تكاثروا وازدحموا يزحفون مرحلة الى داخل افريقيا . وعلى هذا النحو استعمروا تنال والاورانج والترانسفال . وعلى هذا النحو هاجر جانب من اهل اوربا الى اميركا واستعمروها تخلّصاً من شح الرزق في بلادهم . وهكذا استُعمر وسيستعمر كل صقع مهجور

﴿ حد الرزق النهائي ﴾ — فاذا كان الناس كلما ازدحموا في صقع اضطروا ان يهاجروا الى صقع غير معمور فبالطبع يتبادر الى الذهن ان حدّ الرزق النهائي هو نهاية البسيطة اي انهُ متى بلغ السكان الى حد ان يستنفدوا كل غلة الاراضي في الدنيا كلها توقفت زيادة السكان لان المزيد منهم لا يجد رزقاً الاّ اذا قاسم الموجودين منهم رزقهم . وفي هذه الحالة تسوء المعيشة طبعاً وسوء المعيشة يقلل السكان مباشرةً . وهكذا يتوازن السكان والارزاق معاً

هذا ما يتبادر الى الذهن طبعاً وهو الحقيقة اذا قطعنا النظر عن اعتبارات اخرى ذات اهمية عظمى في مصادر الارزاق وفي علة تكاثر السكان . فهل حقيق انهُ اذا انتشر السكان في البسيطة على التساوي وجعلوا يستغلّون كل شبر فيها تنتهي مصادر الارزاق و يتوقف تزايد

السكان عند ذلك الحد ؟ والاَّ فما هو الحد النهائي للارزاق الذي يقف الحد النهائي لزيادة السكان ؟ الجواب في ما يلي

﴿ مرونة دائرة الرزق ﴾ — دائرة الرزق مرنة جداً . كلما احتشد السكان فيها اتسعت وكلما اتسعت توثرت واشتد ضغطها على السكان . ومتى لم يعد اتساعها ممكناً كانت الحد النهائي لازدياد السكان الاَّ اذا كان ثمت دائرة اخرى وراءها فيتجاوزها جانب منهم الى تلك الدائرة . فلو لم تحتشد اوربا بالسكان حشداً وسَّع دائرة الرزق فيها الى النهاية فربما لم يجد كولومبوس سبيلاً لاكتشاف اميركا . ولو ان تلك الدائرة لم تتسع ايضاً نهاية الاتساع بعد اكتشاف اميركا لبقيت اميركا قفراً الى ان تبلغ دائرة الرزق الاوربية نهايتها من الاتساع فيتدفق السكان الى اميركا . وذلك لان الناس لا يجشمون مشاق المهاجرة ولا يركبون متون المخاطرة الاَّ حينما لا يعودون يطيقون ضغط تلك الدائرة . كذلك اهل مصر لا ينزعون الى السودان او الى بلاد اخرى ما لم ينحصروا في مصر عصراً

﴿ الانسان بين ضغط الزحام وضغط الدائرة ﴾ — متى كان الناس المزدحمون في دائرة الرزق يدفعون بعضهم بعضاً الى محيط الدائرة ترى اقواهم آمناً في مركز الدائرة واضعفهم يحتمل ضغط الزحام من ورائه وضغط محيط الدائرة من امامه فان لم يجد مهرباً من الدائرة هلك فيها

اذا عجز الفرد عن ان يكون سيداً اضطرَّ ان يكون مسوداً . وان قصَّر عن ان يكون مالكاً كان عاملاً . وان لم يتسنَّ له ان يكون زارعاً كان اجيراً لزارع . وان لم يستطع تحصيل الجنيه اضطر ان يكتفي بالريال او بالقرش . وان ضاقت في وجهه سبُل الرزق ولم يستطع ان يحتال او يسرق تسوَّل والاَّ هلك او نزح ان استطاع

فالانسان القوي يدفع من امامه الانسان الضعيف . وهذا يدفع من امامه الحيوان . والحيوان يدفع من امامه الطبيعة . وبالتالي يبقى الانسان والطبيعة فقط . فالطبيعة بما فيها هي الحد الاخير للانسان . فما دام في الطبيعة رزق فالانسان يتعدد الى ان يتحول كل ما يمكن من رزق الطبيعة الى ناس

﴿ الانسان والطبيعة ﴾ — الانسان ابن الطبيعة اي هو جزء منها فهو مؤلف من مادتها وقوتها . تكوَّن منها ويعود اليها . واذا كانت المادَّة والقوة لا تقبلان الفناء بل تتحولان من صورة الى صورة فاذا جاء الانسان الى الطبيعة فلا يكون قد اتى اليها بشيء ليس فيها . واذا ذهب منها فلا يكون قد انقصها شيئاً مما فيها

الانسان يعيش على الحيوان والنبات والحيوان يعيش على النبات وبعضهُ على بعض

والنبات يعيش على الكربون والهيدروجين والاكسجين والنتروجين وبعض الاملاح المعدنية فالانسان مركب من هذه العناصر. فاذا تحوَّل الجانب الاعظم من هذه العناصر (او الجانب الذي يمكن تحويلهُ) الى ناس بلغ عدد الناس الحد النهائي واستحالت الزيادة طبعاً

فاذاً لا ينتهي عدد السكان حينما يستتم الناس زرع الارض واستغلالها كلها ما دام في الطبيعة قوة تحت سيطرة الانسان ومادة كربوهيدراتية يمكنهُ تحويلها بفعل تلك القوة الى اجسام انسانية

وقد اخترع الانسان القطار البخاري والاوتوموبيل فاستغنى بهما عن بعض دواب النقل وسيستغني عنها جملة . وهذه الحيوانات تعيش من غلة الارض مع الانسان فاذا تلاشت (او قل توالدها) بقيت الحبوب والبقول التي تأكلها طعاماً لهُ . فهذه وسيلة طبيعية لزيادة عدد السكان

وقد استخرج الانسان الفحم الحجري من الارض واحرقهُ لتوليد قوة يستخدمها في اعماله . ولما احترق تحوَّل الى الحامض الكربونيك فكان غذاء للنبات والنبات غذاء للانسان والحيوان والحيوان يغذي الانسان . وهذه وسيلة اخرى لزيادة عدد السكان

والوحوش الضارية كانت تأكل الحيوانات آكلة النبات وكانت الطبيعة ملأى من حيوانات يسطو بعضها على بعض وينازع بعضها بعضاً الرزق فلما جاء الانسان جعل ينازعها كلها ارزاقها حتى انحفت الحيوانات الضارية من البلاد العامرة . وبالطبع تحوَّلت مواد الطبيعة عن طريق البقول والحبوب والخرفان والفراخ الى ناس

واذا تمادينا في استقصاء هذا التحوُّل وجدنا ان المعمور يتحوَّل بفعل الانسان الى ناس وغذاء للناس اي لا يبقى اخيراً الاَّ الانسان والطبيعة تحت سلطة الانسان ووجدنا ايضاً ان غلة الارض كما تبرزها الطبيعة مستقلةً عن عمل الانسان ليست المصدر الوحيد للارزاق بل هناك مصادر اخرى نجملها في ما يأتي : —

اولاً انقراض جانب كبير من الاحياء التي كان الانسان ينازعها الرزق وهي : ١ — الحيوانات التي لا فائدة منها للانسان وكانت قبل الانسان تملأ المعمور ولا تزال في مجاهل افريقيا تربو على ناسها : ٢ — النباتات التي لا يغتذي منها الانسان ولا تفيدهُ لمأواهُ او لكسائهِ او لا لزوم لها لوقيدهِ فقد اقتلعها وزرع بدلها نباتات تفيدهُ

ثانياً استخراج الانسان موادَّ من الارض كالفحم الحجري والبترول والفصفات والنترات (سماد لتربة) تحول الى غذاء

ثالثاً استخراج مواد اخرى معدنية وغير معدنية كالحديد والنحاس والفحم والزفت — كل هذه يستخدمها الانسان لراحته . ولراحتهُ توفر مادتهُ التي لولا الراحة والهناء لكانت تذهب عاجلاً في التعب والعمل الشاق وتوفر قوتهُ التي لولا المأوى والكساء لتبددت عاجلاً بالبرد

واذا كان الانسان الى الآن لم يستفد الفائدة التامة من هذه المصادر الطبيعية فالذنب ذنبهُ لانهُ لم يستقر على النظام الاجتماعي القويم الذي يقدرهُ على الاستفادة من هذه المنافع

رابعاً استيلاء الانسان على قوات الطبيعة كالبخار والكهرباء وانحدار المياه وحركة الرياح الى غير ذلك من القوات التي اغنتهُ عن الحيوانات المستعملة للنقل والجر التي كانت تنازعهُ الرزق

﴿ الخلاصة ﴾ — نرى من كل ما تقدم ان دائرة الارزاق واسعة جدًّا ومرنة جدًّا تحتمل الاتساع كثيراً . والانسان لم يملأها حتى الآن ومتى ملأها يستطيع ان يوسعها كثيراً . واذا كان اتساعها يشدد ضغطها عليهِ فهو قادر ان يقاوم هذا الضغط بقوة الطبيعة نفسها التي يستخدمها لاغراض كثيرة . فاذا كانت اوربا قد ازدحمت بالسكان ولم تعد تحتمل مزيداً فاميركا لم تزل واسعة وتحتمل عشرة اضعاف سكانها . واسيا كذلك وافريقيا لم تزل خالية تقريباً فالناس لا يزالون قليلين على دنياهم

وهنا لا بد ان تلوح لخاطر هذه الاسئلة : —

١ — لقد مرَّ على نشوء الانسان الوف من القرون فلو كانت قاعدة مالثوس صحيحة لوجب ان تمتلئ الارض سكاناً منذ الوف من القرون . فلماذا لم يزل جانب كبير من البسيطة خلواً من السكان او يحتمل اضعاف سكانهِ

٢ — اذا كانت الارض لم تزل رحيبة لاهلها فما الذي يضطر الناس الى الازدحام ضمن دوائرهم الضيقة واحتمال ضغطها . ولماذا لا يشقونها الى دوائر اوسع منها وارحب

٣ — اذا كانت دائرة الارزاق واسعة فما السر في ان السواد الاعظم من الناس يعانون الشقاء والفقر

٤ — اذا كانت دائرة الارزاق اوسع جدًّا من ان يملأها الناس فما الذي اوقف عدد السكان عند الحد الحالي

هذه اسئلة جديرة بالنظر وسنعود الى البحث فيها في فرصة اخرى

نقولا الحداد